الفصل الثامن

الاتجاه والمنهج فى علم الاجتماع الحضرى (*)

ان الباحث فى علم الاجتماع الحضرى قد يتناول موضوعه بالدراسة بطريقتين مختلفتين • فاذا نظر الى علم الاجتماع الحضرى من زاوية الوحدة الاجتماعية الصغرى micro-social فسوف يركز اهتمامة على خاصية واحدة من خصائص الحياة الحضرية ، كدراسة مدينة معينة ، مثلا ، أو دراسة الخصائص الاجتماعية لسكان الحضر فى واحدة أو أكثر من المناطق الحضرية ، أو أشكال استخدام الأرض فى المدينة ••• وهكذا • وقد تنحصر بؤرة اهتمامه فى مجال ضيق كالاهتمام بطبيعة احدى الضواحى المعينة أو العلاقات بين الناس فى الشارع ، والبيانات التى يمكن أن تجمع من خلال العمل الميدانى أو الاحصاءات • وقد تقودنا الدراسة على هذا النحو الى نتائج نظرية ، غير أنها مع ذلك تتسم غالبا بالاتجاه الامبيريقى • وتنتمى الى هذا النوع من الدراسات الأعمال الوصفية والتفصيلية « لمدرسة شيكاغو » •

أما النظرة الى علم الاجتماع الحضرى من زاوية الوحدة الاجتماعية الكبرى Macro-Social ، أو من وجهة النظر الاجتماعية الكبرى ، فانها تعتبر الأساس الذى تبنى عليه النظرية فى علم الاجتماع الحضرى • فهى تهتم بالتناول الرحب والمجرد للامح الحياة الحضرية ، كما تعنى ببناء نظرية عامة وتتناول النظم الاجتماعية الحضرية على نطاق عالمى ، ولا تقف الموضوعات التى تثيرها عند حدود مدينة واحدة أو قطر واحد ، وانما تتميز هذه الموضوعات بدلالات عامة ، كالتساؤل مثلا عن الآثار التى تحدثها الحياة الحضرية على وظيفة الاسرة ، أو على التقسيم الاجتماعى الطبقى للسكان • ويرى العلماء

(*) هذا الفصل مترجم من المصدر التالى : —
Harold E. Nottridge, The Sociology of Urban Living, Routledge and Kegan Paul, London and Boston, 1972, pp. 17-39.

الذين يأخذون بهذه الوجهة من النظر ، مثل ماكس فيبـــر M. Weber أن التحضر يجب أن ينظر اليه كعملية تغير ضخمة وشاملة وأنه ينطوى على دلالات أكثر من مجرد نمو حجم المدن ٠

ونحن نؤكد على التمييز بين هاتين الوجهتين من النظـــر ، لا لأن احداهما تلغى الأخرى ، وانما لأنه من الأهمية بمكان أن نفهم طبيعة المدخل المستخدم فى دراسة معينة ٠ والنموذج العملى للبحث الذى يدرك التمييز بين طبيعة هذين المدخلين ، تلك الدراسة عن اسر الطبقات المتوسطة (C. Bell ١٩٦٨) التى تضع مقابلة بين الدراسة الايكولوجية الكبرى ذات المستوى الرحب للمدن والمراكز الحضرية ، وبين المدخل الايكولوجى الأصغر ، الذى تتطلبه دراسة احدى جماعات الجوار مثلا (١) ٠

***

أولا : علم الاجتماع الحضرى والتاريخ الحضرى

يرى شنور Schnore أن علم الاجتماع الحضرى ، فى الولايات المتحدة على الأقل ، قد أبدى حتى وقت حديث نقصا شديدا فى الاهتمام بالموضـــوعات المســـائل التاريخيـــة (٢) ٠ ولقـــد أخذ هذا الوضـــع يتغيـــر نظـــرا لظهور مدخـــل جديد يقـــوم على نـــوع من التكامل المعرفى يدرك من خلالـــه المؤرخـــون والسوسيولوجيـــون أهميـــة أعمالهم فى تنمية الفروع الأخرى من العلوم ٠ ويصدق ذلك بوجه خاص على التاريخ الاجتماعى حيث نجد المتخصصين فيه يستعيرون بعض الأساليب ، كطريقة العينات ، أحيانا من المشتغلين بعلم الاجتماع ٠ وهناك مداخل أخـــرى تتمثل فى دراسة الأبنية الاجتماعية ، والجماعات الاجتماعية ، والفـــروق

---

(١) Bell, C.R., Middle class Families, Routledge and Kegan Paul, London, 1968.

(٢) Dyos, H.J. (ed.) The Study of Urban History, Arnold, 1968.

الريفية ـ الحضرية ، والاتصالات الاجتماعية ، تعتبر مفيدة بالنسبة لبحوث الأسرة على وجه الخصوص (٢) • كما أن السوسيولوجيين يحتاجون أحيانا الى مناهج تغطى فترة طويلة من السنين ، وهى ما يعرف بالمسوح التاريخية Longitudinal surveys •

ولقد عانت الدراسة المتخصصة فى التاريخ الحضرى فى الماضى كثيرا من العقبات والصعوبات • فلقد كان هناك اهتمام زائد بالتاريخ المحلى على حساب المناهج المقارنة ، كما كان الهدف الرئيسى للمؤرخين الحضريين يبدو أنه دراسة المشكلات التى يجدونها فى التاريخ الحضرى وليس دراسة العمليات الاجتماعية التى كان يمكن ملاحظتها وذلك على الأقل بالنسبة لمدن القرنين التاسع عشر والعشرين (٤) •

وكانت المدن تعد الوعاء المتميز للفكر والسلوك الانسانى كما كانت تعتبر مراكز للمشكلات الحضرية الخاصة •

ولقد ظهر حتى الآن تغير فى النظرة التاريخية وأصبح الناس يتقبلون المدن ، بأخطائها أو بدون هذه الأخطاء ، كجزء من الوجود الانسانى • ولكننا فى حاجة ماسة الى الكثير من الدراسات العامة • وتمثل دراسة ا • ف • فيبر واحدة من الاستثناءات الكبرى للقاعدة العامة التى مؤداها أن الدراسات التاريخية الحضرية التى تمت حتى الآن ليست سوى تاريخ للوحدات الصغرى (٥) • ويرى لامبارد Lampard الذى يعتقد أن الدراسة العامة للتغير الاجتماعى ميدان هام بالنسبة للمؤرخ الحضرى ـ انه ينبغى دراسة

---

(٣) Colloque de L'Ecole Normale Supérieure de St. Cloud, L'Histoire Sociale : Sources el méthodes, Presses Universitaires de France, Paris, 1967.

(٤) Handlin, O. and Burchard J., (eds.), The Historian and the City, Massachusetts Institute of Technology pre. 1963.

(٥) Weber, A.F., The Growth of Cities in the 19th Century, Cornell University Press, 1899.

الروتين المنظم والأمور المتعاقبة التى تحدث فى شئون الأسرة والمجتمع المحلى فى ضوء دلالات الهجرة ، والتغير المهنى ، والتغير فى المكانة والحراك الاجتماعى • فعلينا ألا ننسى الهدف العام الرحب • وعلى المؤرخ الحضرى ايضا أن يضع فى اعتباره الدراسة العامة لعملية التحضر فى المجتمع (هاندلين وبورشارد ، مرجع سابق ، ١٩٦٣) •

ان الباحث فى علم الاجتماع الحضرى الذى يهتم بدراسة التاريخ الحضرى الحديث سوف يجد تباينا فى توفر مادة بحثه • فبعض بلدان أوروبا الغربية لديها مادة طيّبة حول الدراسات الديموجرافية الحضرية ، وعن الايكولوجيا الحضرية ، ولكن قد يكون من المتعذر الحصول على مادة لدراسة البناء الاجتماعى او السلوك الاجتماعى (ديوس) مرجع سابق ، ١٩٦٨)

المدينة المبكرة : مدينة « ما قبل الصناعة » : ان الشواهد على الوجود الاجتماعى للمدن المبكرة بعضها ذو صبغة أثرية وبعضها الآخر غير قابل للتفسير المحدد • ومع ذلك فان أقدم المدن تجذب الانتباه لأنها تبدو متضمنة لبعض التغيرات الثورية فى انماط الحياة الاجتماعية الانسانية • ولابد من تحقيق شروط معينة حتى تصبح المدن حقائق واقعة • ولقد كانت النظرة القديمة ترى أن نمو المدن كان يعتمد كلية على اكتشاف التكنولوجيا الجديدة فى ميدان الانتاج الغذائى لاعاشة سكان المدينة • غير أن هذه النظرة قد تعدلت تعديلا جزئيا فى ضوء الفكر الحديث ، الذى يرى أن ظهور نوع من التنظيم الاجتماعى لادارة شئون المدينة والتحكم فى أمورها كان ضروريا بنفس درجة أهمية تكنولوجيا الانتاج الغذائى المتطورة •

ولا تزال العلاقة بين التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعى الحضرى من المشكلات الحضرية المستمرة • فلقد وجدت مدن الأزتك أن تنظيمها الاجتماعى سبق فى تطوره تكنولوجيا الغذاء والامداد بالمياه ، والنقل ، والرعاية الصحة العامة (٦) • ويبدو أن التكنولوجيا الحديثة الغربية فى مجال النقل قد تطورت دون ان يواكبها تطور مناظر فى قدرة التنظيم الاجتماعى على ضبط آثارها ونتائجها •

---

(٦) Soustelle, J., Daily Life of the Aztecs, Penguin, 1955.

وقد تكون المدينة اليونانية ـ الرومانية قد حققت بعض النجاح فى مواجهة هذه المشكلات المبكرة ، الا أنه ظهرت مشكلات جديدة ومستمرة • ولقد كتب أحد الكتاب يقول : « فى كل مدينة يعيش الفقير والغنى كعدوين متجاورين • وكل منهما يحسد الآخر • ولا تقوم بينهما علاقات ، ولا يتبادلان الخدمات ، ولا يوجد عمل ما يوحد بينهما » (٧) •

ولقد جرت محاولة لتصنيف جميع المدن التى كانت موجودة قبل عام ١٧٥٠ ، بل وبعض المدن الموجودة فى الوقت الحاضر ، تحت مصطلح عام هو « مدينة ما قبل الصناعة » ، وهو فى حقيقة الأمر « مفهوم نظرى » (٨) • فهو يعتبر أن هذه المدن تتميز بخصائص عامة ، كما أنها تختلف عن المدن الحضرية الصناعية الموجودة فى الوقت الحاضر • وهى على نحو أو آخر معروفة لنا بشكل أفضل من المدن الموجودة فى عهد ظهور الصناعة • فالجماعات أو العائلات المختلفة ، وكذلك الحرف المختلفة ، تعيش فى جو من العزل الصارم وفى ظروف شديدة الازدحام • وكان الحرفيون يعيشون ويعملون ويبيعون منتجاتهم فى نفس البيوت التى يعيشون فيها •

ويعيش الفقراء فى المدينة على هامش الحياة ، أما الطبقة العليا ـ أو الصفوة ـ فانهم يحتلون موضعهم فى المركز لكى يستطيعوا التحكم فى القوة الاجتماعية • وهم قد يستخدمون الدين كوسيلة للضبط • ولقد رسم « كولانج » صورة كئيبة وحزينة للمدينة اليونانية ـ الرومانية ، تكشف عن اغتراب الانسان لا بسبب حدود وقيود المدينة ، وانما لابتعاده وانعزاله عن الدين فى المدينة • ولقد كانت فئة الصفوة تتمتع بقدر كبير من الأهمية فى مدينة ما قبل الصناعة ، « وكلما كانت الصفوة أكثر قوة ، كانت المدينة أعظم » (جوبرج ، المرجع السابق ، ١٩٦٠) • لقد كانت جماعات الصفوة مثقفة وتحتقر طبقات التجار وتزدريها ، وفقا لما تعبر عنه الأشعار الصينية

---

(٧) Coulonge, F. de, la Cité antique, Huchelle, Paris, 1864.

(٨) Sjoberg, G., The Preindustrial City, Chicago and New York, 1960.

من أن « رجال الأعمال يتباهون بمهارتهم ودهائهم ولكنهم فى المعرفة بالفلسفة كالأطفال الصغار » (٩) ٠

ولقد تعرضت آراء جوبرج للنقد من عدة نواح ٠ وكان أحد الانتقادات التى وجهت اليه أنه قد طمس الفروق الموجود بين الأنواع المختلفة من المدن ٠ مدن الشرق القديم ، ومدن العصر اليونانى ـ الرومانى ، والمدن الأوروبية فى العصور الوسطى ٠ وكان متعسفا فى مفهومه النظرى الذى قدمه للمدينة حيث لا يصدق هذا المفهوم على كثير من المدن ، ويرى كوكس Cox أن المشكلة تكمن فى زعم جوبرج أن كل المدن ، وعلى الأقل فى فترة ما قبل الصناعة ، كانت أنساق فرعية من المجتمع الاقطاعى (١٠) ٠ فهو يقرر أن الهند البراهماتية لا يمكن أن تندرج تحت هذه الفئة ٠ فقد كانت تمثل نسقا من القرى التى تم تنظيمها بشكل صارم على أساس توارث التخصص المهنى دون أى قدرات ثقافية داخلية تؤهلها للتطور الاجتماعى ٠ ولقد طورت أثينا وروما مفهوما للمواطنة لم يكن ينسجم مع المجتمع الاقطاعى ٠ ولم تكن المدينة الأوروبية فى العصور الوسطى نتاجا للنظام الاقطاعى ٠ وأخيرا ، فان الاقطاع والصناعة ليسا مفهومين متوازيين يمكن النظر اليهما كثنائية يقابل كل منهما الآخر ٠

ويؤكد بيرن Pirenne على أهمية كل من الجوانب الاقتصادية للمدن فى العصور الوسطى والتنظيم الجماعى لها ٠ كما أنه يبرز بالحاح القيمة الهامة للأسواق ، وان كانت تعميماته لا تصدق على جميع المدن الأوروبية ٠ (هاندلين ، وبورشارد مرجع سابق ، ١٩٦٣) ٠ ولقد أبرز الطابع المميز للحياة العامة فى المدينة ، والتعاون الذى كان موجودا بالمعنى القائل (ليعمل كل واحد على مساعدة الآخر كأخيه) ٠ غير أن مقابلته بين حياة المدينة وبين النبالة الريفية (حياة نبلاء الريف) لم تستطع أن تثبت

---

(٩) نقلا عن Chen Tzu-ang, Chinese Poems, trans. by A. Waly, Aller and unwin, 1946.

(١٠) Meadows, P. and Mizruchi, E.H., Urbanism, Urbanisation and change : comparative perspectives, Addison—Wesley, 1969.

أمام النقد . وفى بعض المدن كانت النبالة الحضرية تتمتع بقوة كبـــيرة . وعلى كل حال ، فان بيرن قد اثار عددا من المشكلات الهامة كطبيعة العلاقات بين المدن والريف فى العصور الوسطى ، والدور الذى لعبته المدن فى التغـير الاجتماعى الذى وضع حدا للنظام الاقطاعى (١١) .

المدينة كنمط مثالى : أراد ماكس فيبر فى مؤلفه « المدينة » أن يكتشف نموذجا من التاريخ ، وأن يقف على الطبيعة الخاصة للظاهرة الاجتماعية الحضرية (١٢) . ولقد قبل الفكرة الشائعة فى وقته والتى مؤداها أن المدينة هى منطقة مزدحمة بالسكان حيث لا يعرف الناس كلا منهم الآخر على خلاف ما يحدث فى الاماكن الأصغر ، ولكنه تفوق على غيره من السوسيولوجيين بنظريته عن « المجتمع المحلى الحضرى » .

ولم يكن « المجتمع المحلى الحضرى » عند فيبر مجرد جمع أو تجمعات للنشاطات الانسانية ، ولكنه عبارة عن نمط واضح محدد المعالم من أنماط الحياة الانسانية . ويمكن أن تظهر المدينة بهذا المعنى فقط تحت شروط خاصة وفى مرحلة معينة من مراحل التاريخ . ولقد توفرت هذه الشـــروط فى أوروبا فى مدينة ما قبل الصناعة ، وأن فيبر قد أثبت أن هذه الشروط لم تكن موجودة فى كل انحاء أوروبا . وينبغى تحديد الوقت الحقيقى لظهور المدن على نحو دقيق .

ويمكن لأوروبا وحدها أن تخلق ذلك الوضع الفريد بسبب ظهور وتأثير « الرشد » فى الحياة الاجتماعية . ولم يكن ذلك يعنى بالضرورة انتصارا « للعقل » أو « الذوق العام » ولكنه يتضمن الاستخدام المحسوب للموارد من أجل انجاز هدف أو مجموعة من الاهداف بأكثر الطرق اقتصادا بقدر الامكان . غير أن هناك من قال بأن مجتمعات ما قبل الصناعة ، كان لديها القدر القليل من « الرشد » على هذا النحو . حيث كانت تلك المجتمعات

---

(١١) Pirenne, H., Mediaeval Cities, Princeton University Press 1956.

(١٢) Weber, M., The City, New York and London, 1958.

تتميز بوجود شد وجذب بين السلوك الرشيد والسوك التقليدى ، وكان يحسم لصالح السلوك المتوارث عن الماضى « كما كان الناس ينفعلون دائما » (١٣) • ويبدو أن ذلك الفرق بين الرشد والسلوك التقليدى قد قاد فيبر فى ذلك الوقت الى تصور وجود تناقص بين الاثنين والى الفصل بينهما على نحو غير صحيح (١٤) • ولقد كان فيبر مشغولا طيلة حياته بنمو ظاهرة الرشد فى الحضارة الغربية (١٥) • وربما يكون هذا قد جعل من الصعب عليه أن يتطرق الى تعريف عام للمدينة يقبل التطبيق على نطاق عالمى •

وهناك صعوبة أخرى تكتنف مفهوم فيبر للمدينة كنمط مثالى يتأسس على عدد من العناصر النظرية التى يصعب تطبيقها فى الواقع المعاش •فاذا تصورنا هنا فكرة « الكلب » كمفهوم مجرد والتى تتضمن كافة السمات الهامة « للكلابية » (أى كون الحيوان كلبا) ، ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تنطبق على كلب بعينه ، لأنها تعبر عن مفهوم مجرد وليس عن حالات فردية • فهذا المفهوم لا ينطبق على بعض أنواع المدن « كمدن العامة من الرومان » ، و « مدن النبلاء والارستقراطيين فى روما » • ان النمط المثالى يمكن أن يساعدنا فى معرفة الدرجة التى عندها تكون هذه المدينة ممثلة لهذا النمط أو ذاك ، وتتبع النظام القديم أم أنها تتبع شكلا حديثا من أشكال التنظيم • كما أنه سوف يساعدنا فى قياس التغير أيضا •

وبينما كان النمط المثالى اداة نظرية قيمة ، فان هناك بعض المشكلات التى سوف تظهر لو أننا قبلناه دون ماتحفظ • وربما كانت المشكلة هى الطريقة التى اختار بها فيبر الخصائص التى نهضت عليها مدن «المثالية» • فلو أنه

---

(١٣) انظر دراسات مورجان وواردِ في الكتاب التالي :—
Worsley, P. (ed.), Introducing Sociology, Penguin, 1970.

(١٤) See, Weber, M., Theory of Social and Economic Organization, Trans. By A. Henderson and T. Parsons, Collier — Macmillan, 1947.
And T. Parsons, The Structure of SocalAction, New York and London, 1968.

(١٥) Bendix, R., Max Weber, An Intellectual Portrair, Doubleday, New York, 1960.

اختار خصائصه من بين المدن الموجودة وحدها ، فانه لا يكون قد تمكن بحق من خلق نمط مثالى خالص • ومن جهة أخرى ، فان نمطا مثاليا مجردا لاتكون له قيمة ذات بال فى المساعدة على فهم الأوضاع الاجتماعية ، ولقد كان « الفهم » من الملامح الأساسية فى نظرة فيبر لعلم الاجتماع (بارسونز ، المرجع السابق ، ١٩٦٨) • ويؤكد فريدريش بشىء من التشاؤم أنه لا تحليلات فون شيلتونج الدقيقة ولا تعليقات بارسونز المتعمقة أفلحت فى كشف الغموض الذى يحيط بهذه الأداة التى طورها ماكس فيبر (١٦) •

وبالرغم من أن أعمال فيبر تنصب على موضوع تطور الظاهرة الحضرية أكثر مما تنصب على وضع نظرية عامة فى التحضر ، فان هذه الأعمال تنطوى على قيمة من حيث أنها توضح كيف يمكن تركيز الانتباه على العمليات الأساسية للتغير الاجتماعى •

ويؤكد فيبر بحق على التنوع الكبير فى أشكال المدن التى كانت موجودة حتى فى مجتمعات ما قبل الصناعة ، ففى الوقت الذى نسلم فيه بأن الزيادة السكانية والتجميع السكانى ظاهرة مصاحبة للثورة الصناعية فى العصر الحديث ، فاننا يجب ألا نخلط بحال من الأحوال بين التجمع الفيزيقى للسكان ونمو المدن بالمعنى السوسيولوجى • وفيما يرى فيبر فان فكرة المدينة قد أشرفت على نهايتها • ولقد فقد « المجتمع المحلى الحضرى » أو بدأ يفقد تفرده واستقلاله القانونى والسياسى • ولم يعد المواطنون الحضريون يتحدون حول هدف مشترك ، ولم يعد هناك انغلاق داخل جدران المدن ، كما أن المدينة الحديثة قد أخذت تمر بمرحلة من الاضمحلال والتدهور • ولقد وجدت هذه النتيجة المأساوية لدراسة فيبر صدى لها فى كتاب « بولدنج » Boulding المتشائم الموسوم « نهاية المدينة » (هاندلين ، وبورشارو ، المرجع السابق ، ١٩٦٣) حيث تبدو مواقع المدينة القديمة عبارة عن حفر أو تجويفات ناتجة عن الاشعاع •

المدن الشرقية : ميز فيبر نفسه بين المدن الشرقية والأنواع الأخرى من

---

(١٦) Merton, R.K. et al. (eds.) A Reader in Bureaucracy, Chicago and London, 1952.

المدن ، حيث أشار الى المدينة اليونانية ـ الرومانية ، والمدينة الأوروبية ، والمدينة الشرقية • ولقد أبرز أحد الكتاب الذين درسوا مدن الشرق الأوسط والمدن الاسلامية تناقض تلك المدن مع المدن الأوروبية التى يقصدها فيبر • فالمدينة الشرقية فى عدد من خصائصها ـ الشرعية أو القانونية ، والبنائية ، والمادية ـ لا تتميز فى شىء عن القرية وطريقتها فى الحياة • فالمجتمع المحلى الحضرى يبقى دائما قرية ولا أكثر من ذلك ما لم يتضمن احدى المحاكم أو المراكز الادارية انظر مقال Murva، فى كتاب Meadows and Mizruchi مرجع سابق ، ١٩٦٩) • أما المدينة الغربية فقد كانت تختلف بشكل حاد من النواحى القانونية مع الأشكال الأخرى للتنظيم الاجتماعى ، فالفرق بين الريف والمدن كان يبدو واضحا كل الوضوح •

المجتمع المحلى والمجتمع : المجتمع المحلى والمجتمع هما مفهومان من المفاهيم التى طورها « تونيز » Tonnies فى كتابه الذى يحمل نفس العنوان والذى صدرت ترجمته الانجليزيه عام ١٩٥٥ • فجميع العلاقات الاجتماعية فى رأى تونيز انما تنبع من الارادة الانسانية ، غير أن هذه العلاقات يمكن تقسيمها الى نوعين مختلفين من العلاقات • ففى المجتمع المحلى (Gemeinschaft) نجد أن العلاقات الاجتماعية تسودها « الارادة الفطرية » natural will فالفلاحون والقرويون يعيشون فى ظل هذا النوع من العلاقات ، التى يمكن أن تعرف فى أبسط أشكالها بما يسمى « المجتمع المحلى المقدر على الانسان » • وتلك العلاقات تميز الجميع ، كعلاقات الآباء بالأبناء ، والعلاقات داخل الأسرة ، وعلاقات القرابة ، والجوار ، والعلاقات بالأصدقاء • فهؤلاء يعيشون ويعملون معا فى اتصال وثيق قائم على الانسجام والتناغم والوئام • ومن ثم فان هناك انطباعا مؤداه أن علاقات المجتمع المحلى على هذا النحو تتسم بالدفء العميق والاشباع •

أما المجتمع Gesellschaft أو « مجتمع التعاقد » فان العلاقات الاجتماعية فيه تقوم على الانفصال ، أى على أنها علاقات تفصل بين الأفراد • فكل فرد يعتمد على نفسه بمعزل عن الآخرين ويشعر بحالة من التوتر ازاء الأفراد الآخرين • وهناك تناغم بين الارادات ولكنه تناغم ينهض على أساس لا شخصى أو يتم بطريقة غير شخصية ، عن طريق

التعاقد • فبدلا من « ارادة الفطرة » فى « المجتمع المحلى » نجد أن هنـــاك « الارادة العقلية » rational will فى المجتمع أو « مجتمع التعاقد » •

ان التناقض بين هذين النوعين من المجتمعات فى طرق الحياة لافـت للنظر الى أبعد حد • ويتساءل أحد السوسيولوجيين المحدثين عما اذا كـان تونيز قد اهتم بهذه التفرقة بين « مجتمع الفطرة » و « المجتمع العلمـــانى القائم على التعاقد » من قبيل التمييز بين القرية والمدينة لاعطاء صورة حقيقية عن الحياة فى كل منهما ، وما اذا كانت هنـــاك عملية تاريخية تتحـــول بمقتضاها علاقات القرية الى علاقات المدينة ؟ ولو أن الأمر كذلك فى رأى تونيز فانه يكون قد وقع فى مغالطة تاريخية ، ويكون على غير دراية كافية بعلم الاجتماع • ويذهب هذا الناقد الى أن تلك الملحمة عن القرية ، كانت ممزوجة فى الماضى على الأقل ، بالمرض ، والجوع ، والحرب ، والموت المبكر ، والتبعية ، والتخلف بوجه عام • ودور التاريخ فى هذا الصدد لا يمكن اغفاله ، اذ أن خصائص الحياة القروية التى يعيشها الفلاحون والقرويون انما هى ارث ينتقل من جيل الى جيل • وعلى ذلك فانه يصبح من الصعب علينا أن نذهب الى أن الحياة الريفية بالضرورة أحسن فى علاقاتها الاجتماعية من الحياة الحضرية ، حتى ولو أخذنا بالفكرة القائلة بأن هناك نوعـين مختلفين من العلاقات الاجتماعية •

ولم يكن تونيز غافلا عن الصعوبات التى تكتنف تفسير فكرته ، فاكد أن مفهوماته هى مفهومات مصطنعة وضعها هو ربما بشـــكل تعسفى ليستعين بها فى التفسير • ومن ثم فانه يمكن النظر اليها كأنماط مثالية • فهو يقرر فى كتابه « المجتمع المحلى والمجتمع » أن علاقات المجتمع المحلـــى يمكن أن توجد فى المدن بالاضافة الى المجتمعات التعاقدية ، الا أنه لا يزال يعتقد أن « الارادة الفطرية » سوف تحل محلها فى وقت من الأوقات « الارادة العقلية » كما أن المجتمع المحلى أو مجتمع الفطرة سوف يحل محله المجتمع التعاقدى بعلاقاته الاجتماعية •

ويبدو واضحا أن قيمة العمل الذى قدمه تونير بالنســـة للفكـــر السوسيولوجى الحديث تعتمد الى حد كبير على ما اذا كنا سنفهم هـــذا العمل فى ظاهرة أم أننا سنأخذ تلك الآراء على أنها نوع من المؤشـــرات •

فلو أننا رفضنا المدخل التاريخى ووجهة النظر القائلة بأن القـــرية او العلاقات الاجتماعية الريفية سوف تنمو وتتخذ شكل العلاقات الاجتماعية الحضرية ، فهل بوسعنا أن نرفض أيضا وجهة النظر القائلة بأن العلاقات الاجتماعية الريفية والعلاقات الاجتماعية الحضرية عبارة عن نمطين مختلفين اختلافا كافيا لدرجة تجعل بينهما ثنائية ؟ ان الاجابة الحديثة على هـذا التساؤل يجب أن تأخذ فى اعتبارها أنه اذا كان بالامكان وضع أى تقسيم بين ما هو ريفى وما هو حضرى ، فان هذا التقسيم يمكن أن يقوم فقط على أساس بعض العناصر العملية التى يمكن اعتبارها كنـــوع من المحكات العملية • أما الجزء الثانى من هذه الاجابة فانه يجب أن يبين أنه اذا كانت علاقات المجتمع المحلى وعلاقات المجتمع التعاقدى لهما وجود فى المدن ، فانه يجب أن يكون لهما وجود فى المناطق الريفية بنفس النسب • ومهما كـان اتجاهنا فلا ينبغى أن ننخدع لا بحسن « الفردوس الريفى المفقود » ولا أن نلوث فهمنا بوجهة النظر القائلة أن المدينة هى مقر المشكلات الاجتماعية •

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن كاتبا لماحا فى العصور الوســـطى كابن خلدون يؤكد فى وصفه لمدن شمال افريقيا أن التعاون هو الذى يؤدى الى التحضر • وهو يقول : « ان من طبيعة البشر أن يدخلوا معا فى علاقات وثيقة واتصال وثيق ، يتحدوا مع بعضهم البعض » • ولقد كرس جـــزءا من كتابه المقدمه للحديث عن المشاعر الجماعية فى المدن •

***

ثانيا : الايكولوجيا الحضرية :

مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع الحضرى : اضـــطلع روبرت بارك R. Park منذ عهد مبكر على مشكلات المهاجـــرين الى الولايات المتحدة ، وأصبح مفتونا بكثير من خصائص الحياة الاجتماعية فى شيكاغو • ولقد شهدت هذه المدينة خلال حياته تغيرات اجتماعية ملحوظة كالزيادة السريعة جدا فى عدد السكان التى ترجع الى تدفق المهاجرين ذوى الأصـــول السلالية والاجتماعية المختلفة الى المدينة موجة اثر موجة • ولقد كان ذلك النمو مصحوبا بمشكلات اجتماعية ملحوظة كصعوبات الاسكان ، ومشكلات

الجريمة ، وهكذا • ويعتبر هذا التغير السريع فى المدينة فرصة نادرة للباحث السوسيولوجى ، حيث أصبحت عمليات التغير فى المجتمع الانسانى أمرا واضحا جليا يمكن ملاحظته بسهولة •

وكان الأنثروبولوجيون الأمريكيون يجتهدون فى ذلك الوقت فى دراسة القبائل الهندية الأمريكية • ورأى بارك أنه يمكن استخدام مناهج مشابهة فى دراسة جوانب حياة المدينة وخصوصا الثقافات «الهامشية» (كالعصابات) والمهاجرين المنعزلين المقيمين فى أحياء « الجيتو » ، والفروق بين الناس وفقا لمحال اقامتهم) • وأما عن المادة أو البيانات المتصلة بذلك فأمكن الحصول عليها من المصادر الاحصائية الرسمية ، وأيضا من البحوث الخاصة ، هذا فضلا عن الجهد الطيب الذى بذله فى هذا المجال قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو • وان كان الباحثون قد وقعوا فى بعض الأحيان فى خطأ الخلط بين البيانات والنظرية •

وقد حاول بارك وضع نظرية فى علم الاجتماع الحضرى • ولقد كان رائدا فى ذلك • فقد كانت المعلومات حول علم الاجتماع الحضرى متفرقة وهزيلة • واستعار لهذا العلم حصيلة من المفردات اللغوية والتشبيهات من علم البيولوجيا • فكلمة « ايكولوجيا » تعنى عادة ـ بالمعنى البيولوجى ـ فرعا من العلم يهتم بالعلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها الطبيعية ، وكذلك العلاقات التى تربط بين جميع الكائنات الحية التى تعيش داخل تلك البيئة • فالكائنات الحية والبيئة الطبيعية التى توجد فيها تعرف عادة على أنها « نسق ايكولوجى » (ecosystem) وفقا للمصطلحات البيولوجية الحديثة • فالباحث فى علم البيولوجيا الحديث يجد متعة فى دراسة الشبكة المعقدة للحياة فى بركة صغيرة من الماء • ويمكن أن يكشف استخدام بارك للمماثلة والتشبيه عن بعض المخاطر والأخطاء •

ويبدو غريبا أن بارك قد طبق مماثلته على المدن فقط وأغفل المجتمعات المحلية الريفية التى يمكن أن تتضمنها أيضا تلك المماثلات • والحقيقة أن بارك قد اختار المدينة لما يمكن أن يعقده من مشابهة بينها وبين البركة • فهى ذات حدود ثابتة كضفاف البحيرة ، وهى فى رأيه منعزلة اجتماعيا عن

غيرها من المناطق الأخرى • وربما كان ذلك صحيحا الى حد ما أيام بارك ، ولكنه ليس كذلك فى الوقت الحاضر •

ولقد تطورت المماثلة أكثر من ذلك كما يبدو فى العبارة القائلة بـــأن المدينة هى «الموطن الطبيعى للانســـان » • انها تتناول تنظيما وتوزيعا للســـكان لا يتم بشكل مخطط أو محكوم (١٧)! • ويميز بارك فى داخـــل المدينة ، ما يطلق عليه اسم « المناطق الطبيعية » ، وهـــذه المناطق هى « مواطن » للجماعات الطبيعية أو الفطرية ، كالبوهيميين الذين يوجدون فى المدن الكبرى « بشكل طبيعى » لأنهم غير مخططين ويعتبر وجودهم نتاجا للقوى التى تعمل باستمرار على توزيع السكان ووظائفهم ، على نحو مبين داخل مجتمع المدينة المعقد •

وثمة مماثلات أخرى قد صيغت فى شكل مصطلحات بيولوجيـــة مستعارة • فكلمة « التكافل » Symbiosis تستخدم لوصف الطريقـــة التى يحيا بها أحد الحيوانات فى علاقة وارتباط مشـترك مع غـــيره من الحيوانات • فحيوان « الكركون » يسمح لطائر « أبودراهم » بأن يحيا فى فمه ليتغذى على فضلات الطعام الموجودة بين أسنانه ، فالطائر بدوره يلتقـط هذه البقايا من بين أسنان كفيله وحاميه فيعمل على صيانتها وسلامتها • وهكذا يعيش الناس معا فى المدينة • وكلمة « السيطرة » Dominance (التى تعنى فى علم البيولوجيا أن شجرة قوية أو نباتا قويا له الســـيادة والسيطرة على منطقة معينة) كانت تطبق على شركة أو عدة شـــركات مسيطرة على المدينة • كذلك فهناك كلمة « الغزو » Invasion حيث يحدث الغزو عن طريق نوع من أنواع الحشرات ، أو النباتات ، أو الحيوانات التى يمكنها أن تدفع أمامها أنواعا أخرى من الكائنات الحية • فالمماثلة كانت شديدة الاغراء بحيث يصعب مقاومتها • ألم تمر شيكاغو بمرحلة كهـــذه عندما غزاها المهاجرون واكتسبوا خصائص السكان الأصليين ؟

أما المحاولات الحديثة التى تبذل لتفسير أسلوب معيشة الناس فى

---

(١٧) Park, R.E., Human Communities, University of Chicago Press, 1952.

القطاعات المختلفة من المدن فتبدأ عادة من زاوية مختلفة • ومن ثم فان أحد الجغرافيين قد كتب عن الهجرة من الهند الغربية الى بريطانيا قائلا :

« هناك زعم عام ومن المحتمل انه صحيح بأن أحياء الجيتوهـــى التعبير الجغرافى عن الفشل الاجتماعى » (١٨) • ويوضح جونز (١٩٦٠) بأن التمييز والعزل الذى يتعرض له الرومان الكاثوليك والبروتستانت فى احدى مدن ايرلندا الشمالية يختلف باختلاف درجات التوتر (١٩) • ولقد تبين « فايرى » Firey أن مجموعة من الايطاليين الذين يعيشون فى مساكن متواضعة ومتهدمة يرفضون ترك المنطقة للاقامة فى مساكن أفضل . على الرغم من قدرتهم المالية على ذلك ، وذلك لأنهم مشدودين الى منازلهم بقوة بفعل القيم الثقافية والسلالية (٢٠) •

ولقد حل بارك المشكلات الناجمة عن المماثـــلات البيولوجية وذلك بتقسيم التنظيم الاجتماعى الانسانى الى مستويين ـ احدهما هـــــو المستوى الرفيع أو «الثقافى» والآخر هو المستوى الأدنى أو المستوى «الحيوى» • وكانت مشكلته هى توضيح طبيعة العلاقة بين هذين المستويين • فاما أن يكون المستوى الحيوى مستقلا عن المستوى الثقافى ، أو يكون انعكاسا لما يصدر عنه (رايسمان ، المرجع السابق ، ١٩٦٤) ولكن كلا الاحتمالين غير صحيح ، اذ يبدو أن الحياة الاجتماعية اشبه ما تكون بلعبة رياضية فى سيرك ، أكثر مما هى شبيهة بالكائن الحى البيولوحى •

ثالثا : التطورات الجديدة فى الايكولوجيا الحضـــرية : الاتجاهات النقدية

على الرغم من أن بارك قد اعتبر المنطقة « الطبيعية » جزءا هاما من الدراسة الحضرية ، فانه لم يقدم لنا فى حقيقة الأمر تعريفا دقيقا ومقننـــا

---

(١٨) Peacd, C., West India Migration to Briain, A Social Geography, Oxford University, Press, 1969.

(١٩) Jones, E., Social Geography of Belfast, Oxford University Press, 1960.

٢٠) Reissman, L., The Urban Process, Collier-Macmillan, 1964.

لها • وتعرف المنطقة الحضرية على انها منطقة جغرافية تتميز بخصائص معينة كانعدام التخطيط ، واللاشخصية ، والقوى ذات الثقافة الفرعية • ان الحي المتخلف ، والجيتو ، والمركب الصناعي ، والقطاع التجاري المركزي ، كلها غير مخططة (رايسمان ، المرجع السابق ، ١٩٦٤) • « وهناك زعم ••• أنه كنتيجة للاختيار ، والعزل العنصري والاتصال الثقافي والتأثير المتبادل بين الأنماط الثقافية ، فان الناس الذين يعيشون في مناطق طبيعية ذات نمط عام ، يخضعون لنفس الظروف الاجتماعية ، التي تتميز عموما بنفس الخصائص » (بارك ، مرجع سابق ، ١٩٥٢) • ومن ثم ، فان أحد أهداف الايكولوجيا الحضرية هو تحديد المناطق الطبيعية في المدينة ، ولكن بارك يميل الى استخدام مصطلحات معينة دون أي مبالاة • فهو يستخدم مفهوم « المنطقة الطبيعية » ومفهوم « مجتمع الجوار » كما لو كانا شيئا واحدا ، كما أنه يخلط أيضا بين مفهوم « المنطقة الطبيعية » ومفهوم « المجتمع المحلي » (٢١) • ولم يتفق تلاميذ بارك أنفسهم على المعنى الدقيق لمصطلح « المنطقة الطبيعية » • ان زورباخ يعتبر أن المنطقة الطبيعية هي بالضرورة نتاج لطبيعة استخدام الأرض • بينما نجد أن ما كنزي ، من جهة أخرى ، يعرفها على أساس بعض الخصائص : كالسكان ، والسلالة ، واللغة ، والدخل والمهنة • ويقترب « بيرجس » من موقف يمثل مزجا بين هاتين الوجهتين المتقابلتين من النظر • فهو يذهب الى أن حياة المجتمع المحلي مشروطة بالتوزيع المكاني للسكان • وبهذا المعنى فان المجتمع المحلي يجب أن يفهم على أنه يشير الى جوانب ثلاث واضحة في الحياة ـ هي الجوانب الايكولوجية ، والثقافية ، والسياسية • وعلينا ألا ننسى أن الايكولوجيين من مدرسة شيكاغو يميلون الى الزعم بأن كل مجتمع محلي يمكن أن يجزأ الى مناطق متميزة لأغراض التحليل العلمي • ولكن الصعوبات التي تكتنف هذا الزعم هي أن الحدود التي ترسم بين هذه المناطق ترسم بشكل تعسفي ، كما أن المناطق المختارة ذاتها قد لا تكون على درجة كبيرة من القيمة •

---

(٢١) Koenig, R., The Community, Routledge and Kegan Paul, 1968.

ولو افترضنا أننا نريد اجراء دراسه حول وقوع حالات الاضطرابات النفسية فى مدينة معينة ، فاننا سوف نجد الباحثين فى هذه الحالة يرون ان متغيرا كالمهنة أو الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها السكان موضوع الدارسة ، من المتغيرات ذات الدلالة التى تفوق مجرد اقامتهم بالمدينة · ولقد أضافت « أليان «Alihan» نقدا آخر الى الانتقادات الموجهة الى الايكولوجيين · فهى ترى أنهم يولون اهتمامهم للظواهر والعوامل « الخارجية » ـ كالسكك الحديدية ، والطرق السريعة ، والمصانع ، والبيئة الطبيعية ـ ويهملون عوامل أخرى هامة · وهو أن أصحاب هذه المدرسة يهتمون اهتماما شديدا بالمدن الكبرى و « مشكلاتها الخاصة » ويهملون المراكز الحضرية الصغرى ، كما أنهم لا يهتمون بالدراسات المقارنة (٢٢) ·

الفروض الخاصة بالنطاقات المكانية الدائرية : لقد اثرت مدرسة شيكاغو الايكولوجية الدراسات الحضرية بعدد آخر من المفاهيم · وقد عكست محاولات « بيرجس » فى التحليل البنائى المكانى ما يسمى بنظرية النطاق المكانى المركزى (بيرجس ، فى بارك وبيرجس ، مرجع سابق ، ١٩٢٥) · ذلك انه قد تبين بالرسوم الايضاحية أن هناك حيا تجاريا صغيرا يوجد فى مركز المدينة ، وهذا الحى محاط بنطاق من المبانى القديمة (نطاق رقم ٢ ثم يلى هذا النطاق الثانى نطاق ثالث وهو حى العمال ثم يلى هذا الحى الأخير آخر أكثر رقيا · وخارج هذه الدوائر داخل المدينة توجد الضواحى · وعلى الرغم من ان بيرجس قد رسم هذا الشكل الايضاحى لمدينة شيكاغو اصلا · الا انه ربما فكر فى قابليته للتطبيق على مدن أمريكية أخرى · فينبغى علينا أن نتذكر أن هذا الرسم عبارة عن وسيلة لتصوير الحقائق فقط ، ولا يعنى تمثيلا للحقائق ذاتها · فهناك مدن ـ تتضمن شيكاغو ذاتها ـ لا تتسق مع هذا النمط « المثالى » تماما ، كما أن هناك الكثير من المدن فى أمريكا اللاتينية ، وفرنسا ، او جنوب شرق

---

(٢٢) انظر المؤلفات التالية : ـ

* Robson, B.T., Urban Analysis, Cambridge University Press, 1968.
* Burgess in : Park, R.E. and Burgess, E.N., The City, university of Chicago Press, 1925, 1967.

آسيا لا تتسق معه على الاطلاق • فليس صحيحا القول بوجه عام أن المدن تتخذ فى اتساعها اتجاها من المركز نحو الخارج • وعلى كل حال ، فان هذه النظرية قد تركت لنا امرين هامين : أولهما هو النطاق الأول ، وهو النطاق الانتقالى الذى يستحق معالجة خاصه والثانى وهو ضرورة اجراء دراسة عن العلاقة بين البناء المكانى الحضرى وبين التنظيم الاجتماعى الذى يرتبط به (٢٣) •

ان جهود الايكولوجيين من أصحاب مدرسة شيكاغو لم تتمخض عن نظرية شاملة عن المدينة ، الا أن أهمية الدراسات الايكولوجية الميدانية سوف تفيد فى تقديم العون فى مجال التغيرات الايكولوجية فى المدينة (٢٤) • وتكشف الاتجاهات الايكولوجية الحديثة المتخصصة كما يمثلها موريس Morris ، وشوليتز Schulz وشور schor تكشف عن اهتمام لا يقتصر على المناطق المدروسة فى حد ذاتها ، وانما يضع فى اعتباره اساسا سكان هذه المناطق وعلاقاتهم الاجتماعية (٢٥) • كما أن هناك اهتماما بالجانب المقارن • ان ميدان الدراسات الحضرية يشهد خلافا بين وجهتين من النظر ، تركز احداهما على أثر الحياة الحضرية على « الشروط الموضوعية » ـ كالبيئة الخارجية ، والتركيب السكانى وما شابه ذلك ـ وتركز الأخرى على دور القيم الاجتماعية والثقافية كمفتاح ضرورى لفهم مايسمى بالشروط الموضوعية للحياة الانسانية بوجه عام (٢٦) •

ويمكن أن تلعب الدراسات الثقافية المقارنة دورا هاما وأساسيا فى هذا المجال • ويلفت كوين Quinn النظر الى وجود اسس اقتصادية

---

(٢٣) Hauser, P.M. and Schnore, L.F., The Study of Urbanization, Witey, 1965.

(٢٤) Madge, J., The Origins of Scientific Sociology, Tavislock, 1958.

(٢٥) انظر دراساتهم التالية : ـ

* Morris, T., The Criminal Area, Routledge and Kegan Paul 1963.
* Schulz, D.A., Coming Black, Prentice-Hall, New York, 1969.
* Schor, A.L., Slums and Social Insecurity, Nelson, 1964.

(٢٦) See, S. Joberg, in Hauser and Schnore, op. cit., 1965.

وعوامل ثقافية واقتصادية معينة ، كالملكية الخاصة ، والتوجيه القيمي كحافز لتحقيق أقصى حد ممكن من الربح · لقد أجرى « بايورو » Pioro دراسة على مركزين حضريين بولنديين كشفت خرائطه الخاصة بهما عن بيانات ديموجرافية تفصيلية موزعة مكانيا (كالسن ، والجنس ، والمهنة والهجرة ، والكثافة السكانية ، والأمراض ، ومرافق الصرف الصحى ، ·· الخ) (٢٧) · كما كشفت خرائط اخرى عن التوزيع المكانى للجريمة ، والاسكان ، وحتى الادمان على الكحول · ويذهب بايورو الى أن « التركيب الاقليمى للمركز الحضرى لا يعتمد فقط على الجانب الجغرافى ··· انه يأتى الى حد كبير كنتيجة تلقائية لفعل القوى الاجتماعية التى تكون علاقاتها الاقليمية محل اعتبار فى الايكولوجيا الاجتماعية » · كما أجرى بايورو مقارنة بين النمو الحضرى فى مدينة رأسمالية واخرى اشتراكية · وقد تساءل عن ترتيب الأولويات عند التخطيط الحضرى لكل من هاتين المدينتين أو هذين المركزين الحضريين ، وما هى الخدمات التى تعطى أولوية عن غيرها ·

رابعا : طريقة شيفكاى Shevky : تحليل المناطق الاجتماعية :

بعد ثلاثين عاما من كتاب بارك عن المدينة ، قدم شيفكاى منهجه فى دراسة التباين الاجتماعى و « المسافة الاجتماعية » (٢٨) · ويرى شيفكاى أن « البناء الاجتماعى الحضرى » يمكن دراسته من خلال ثلاثة مكونات هى : (١) الرتبة الاجتماعية (كالمهنة ، والتعليم ، والايجار) ، (٢) التحضر (كالخصوبة ، وعمالة المرأة ، واقامة الأسرة النووية) ، (٣) العزل العنصرى ·

ومن شواهد المرتبة العليا فى الترتيب الاجتماعى ، على سبيل المثال، وجود نسبة كبيرة من العمال غير اليدويين ، ونسبة الحاصلين على

---

(٢٧) نشر بايورا مؤلفا عن الايكولوجيا الحضرية باللغة البولندية ، و ارسو ١٩٦٢ ، عرض فيه هذه الدراسات .

(٢٨) Shevky, E. and Bell, W., Social Area Analysis, stanford University Press, 1955.

تعليم رسمى عال ، ونسبة المستاجرين باجارات عالية • ويعتبر العـــزل العنصرى مقياسا للتعرف على التمركز السلالى أو جماعات الأقلية فى احدى المناطق ، وذلك فى علاقتها بالسكان فى المنطقة الحضرية بوجه عام • ويمكن أن توزع درجات هذه المتغيرات على شكل رسم بيانى ذى بعدين « للمسافة الاجتماعية » • ويمكن أن يستخدم هذا التكنيك فى الريف والحضر • وقد اهمل شيفكاى المسافة الايكولوجية وركز اهتمامه على التباين الاجتماعى •

وتتركز أوجه النقد الأساسية التى توجه الى هذا التكنيك على نـوع المفاهيم النظرية المستخدمة فيه • وليست الرتبة الاجتماعية بالأمر الغريب، فهى مطابقة الى حد ما للمكانة « الاجتماعية ـ الاقتصادية » • ويرتبط مفهوم « التحضر » ارتباطا وثيقا بأفكار ويرث Wirth كما انـه يواجه نفس الانتقادات • وعلى كل حال ، فانه وفقا لما يقوله روبسون : « ليس هناك اجراء منطقى يمكن عن طريقه اختيار عناصر محددة لها ما يبررهـا ••• ويبدو أن هناك عددا من الاشتقاقات الممكنة التى يمكن استخدامهـا بدلا من تلك التى اختارها شيفكاى (٢٩) •

خامسا : التحليل المتعدد المتغيرات :

هو منهج يستخدم للمقارنة داخل القطر الواحد أو ربما بين عـــدة أقطار • ومن الأمثلة على ذلك ، الدراسة البريطانية التى قدمها موســـر Moser وسكوت Scott حيث طبقا مناهج احصائية فى مجال علم الاجماع الحضرى (٣٠) • وقد تمخض التنميط الناتج عن تلك العمليـــة تمخض عن « مكونات » محـــددة ـ كالطبقة الاجتماعية ، والتغـــيرات السكانية ، والازدحام الشديد ••• الخ : وقد اقترح واكفورد Wakeford مناهج بسيطة وعملية لبناء مقاييس كمية للظاهرة الحضرية لاستخدامها فى المقارنات الحضرية (٣١) •

---

(٢٩) Robson, B.T., Urban Analysis, Cambridge University Press, 1969 and Timms, D.W.G., The Urban Mosaic., Cambridge University Press, 1971.

(٣٠) Moser, C.A. and Scott., W., British. Towns, Oliver, 1961.

(٣١) Wakeford, J., The strategy of Social Enqury, Macmillan, 1968.

سادسا : التنميط العام لأشكال النمو الحضرى :

لقد أجرى رايسمان (فى كتابة المنشور عام ١٩٦٤) عمليات تنميط مقارنة للمجتمعات بالاعتماد على مقاييس متدرجة معينة • وقد قام بتجميع المجتمعات الأربعة والأربعين المختارة بشكل نهائى فى عملية تنميط كلية للتحضر ، كما ناقش أيضا المراحل المختلفة التى تمر بها المجتمعات •

سابعا : المقارنة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية باستخدام التحليلات الاحصائية :

هناك منهج آخر « للتصنيف » ولكنه يثير عددا من المشكلات الهامة التى ترتبط أساسا بمشكلة الفصل الدقيق بين المناطق « الريفية » و « الحضرية » • ولقد حشد دنكان Duncan ورايس Reiss فى الولايات المتحدة قدرا كبيرا من البيانات التى تعتمد على الاحصاءات السكانية الرسمية الدورية ، الا أن نتائجهما قد جاءت لتوضح أنه : «لا يوجد خط تقسيم قاطع ومحدد بين المجتمعات المحلية الريفية والحضرية، سواء على أسس مكانية ، أو على أساس حجم المجتمع ، وتخصصه الوظيفى » (٣٣) • وهناك اعتقاد فى الولايات المتحدة الأمريكية بأن أكبر المناطق المتحضرة تتميز ببعض أوجه الشبه بينها وبين فئة « المزارع الريفية » تفوق تلك الموجودة بينها وبين الوحدات الحضرية الصغرى •

وتعتمد المناهج التى ذكرناها الى حد بعيد على الأساليب الكمية بصورة رئيسية ، وهى فى ذاتها تثير عددا من المشكلات من نوع خاص • ويقول موريس : « كل وسائل تصنيف المدن فى المجتمعات المتحضرة قد حلت مشكلة صياغة الفئات الجديدة التى سوف تكون واضحة وبعيدة عن الغموض دون أن تصبح مغرقة فى التبسيط » (٣٢) •

---

(٣٢) Duncan, O.D. and Reiss, A.., Social Characteristics of Urban and Rural Communities, Wiley, New York, 1956.

(٣٣) Morris, R.N., Urban Sociology, Unwin, 1968.

نحن أمام مشكلة مزدوجة ، فان علينا أن نختار النوع الصحيح من الاحصاءات ، كما أن علينا أن نكشف العوامل التى يمكن تفسيرها أو تحليلها احصائيا ان كان ذلك ممكنا على الاطلاق • ولقد فحص موريس فحصا ناقدا لوسائل تصنيف عديدة •

ومن الأهمية بمكان ألا ينخدع الباحثون فى علم الاجتماع الحضرى كثيرا بما تقدمه الاحصاءات • ففى بعض أجزاء العالم يكون من الصعب أحيانا ، بل مستحيلا الحصول على بيانات احصائية محددة بدقة ، وهنا يجب استخدام طرق أخرى للحصول على المعلومات • ومن المهم بصفة خاصة أن نهتم بالجوانب الكيفية للحياة الحضرية • والا فكيف يتسنى لنا أن نتناول بالحليل الاحصائى قول « دى لاكرتيل » de Lacretelle « ان للمدينة وجها ، وللريف روح » ؟

ثامنا : اتجاه ردفيلد ـ ويرث :

ردفيلد : هو أحد الأنثروبولوجيين وقد قام بأعماله الرئيسية فى القرى والمجتمعات المحلية الصغيرة بالمكسيك • وكانت أعماله الميدانية تهدف الى التوصل الى تعريف للاختلافات بين طبيعة المجتمعات المنعزلة المتجانسة والمجتمعات غير المتجانسة التى تتميز بالحركة والتغير (٣٤) • ويقرر بوضوح أن ثمة نوعين من المجتمعات وأن الفروق بينهما يجب تعريفها على نحو ما • ويطلق على المجتمع الأول « المجتمع الشعبى » ، ويطلق على الثانى « المجتمع الحضرى » • وتبرز المتغيرات الرئيسية عند ردفيلد أن هناك تغيرا من المجتمع الشعبى الى المجتمع الحضرى حيث : يزداد حدوث التفكك الثقافى ، وتزداد درجة العلمانية ، ودرجة الفردية •

ولقد كان ردفيلد يحاول وضع « متصل » أو مقياس يمثل أحد طرفيه النمط « المثالى » لكافة الخصائص الجوهرية « للمجتمع الشعبى » • ويمثل الطرف الآخر للمتصل ـ الطرف النقيض ـ خصائص « المجتمع الحضرى » •

---

(٣٤) Redfield, R., The Folk Culture of Yucatan, University of Chicago Press, 1941.

وتحتل المجتمعات المحلية التى درسها ـ ردفيلد مواضع مختلفة على هـذا المتصل • ويلاحظ أن هناك تدرجا من أحد ـالأقطاب الى القطب الآخـــر للمتصل •

وقد تعرضت نظرية ردفيلد للنقد ، فيرى أوسكار لويس أن مفهـوم شعبى ـ حضرى كمفهوم للتغير الاجتماعى يركز الانتباه على المدينة كمصدر للاتغيير ويقص باقى العوامل أو يهملها (٣٥) • وكان يعتقد أن الصراع يمثل فى حقيقة الامر أحد الجوانب الواضحة فى حياة تيبوزتلان ، فقد كانت هناك توترات واضحة فى هذه القرية • وكان يبدو أن ردفيلد غير قادر على التسليم بوجود « التفكك » أو « سوء التنظيم » فى حياة المدينة ، وان كانت بعض المدن « سيئة التنظيم » disorganized قد أظهرت درجة عالية من الاستمرار والبقاء •

ومن الانتقادات الأخرى لمفهوم ردفيلد أن مفهوم شعبى ـ حضرى يستخدم كأداة بحث ، وليس كقضية عامة ، اذ أنه لا يمثل بالضرورة مراحل مختلفة لتطور المجتمعات ، كما أنه اختراع من وضع الكتاب الغربيين (هوســـر Hauser ، وشنور ، مرجع سابق ، ١٩٦٥) • ويرى «بال» أنه يجب اعادة النظر فى المتصل الريفى الحضرى على أسس زمنية وليس على اسس مكانية (٣٦) • وتلفت مقلته الانتباه الى الحاجة الى دراســـات مقارنة ومنظورات أرحب • ولقد رسم باركلى Barclay, ، على سبيـــل المثال ، صورة سارة جدا للقروى السودانى عندما يعود من عمله فى الخرطوم (الحضرية) فيتخلى تماما عن الوسائل التي عرفها فى حياة المدينة ، عندما يستبدل الملابس الحضرية بالجلابية القروية (٣٧) • كما أن جانيت أبولغد قد بينت لنا كيف ان القرويين المصريين يتدفقون بغزارة على القـــاهرة الحضرية) ويعملون على « ترييف » هذه المدينة (٣٨) •

---

(٣٥) Lewis, O., Life in a Mexican Village, Halt, Rinehart and Winston, New York, 1951.

(٣٦) Pahl, R.E., Reading in urban sociology, Pergamen, 1968.

(٣٧) Barclay, H.B., Bari al Lamaab, Cornell University Press, New York, 1964.

(٣٨) تعدم في الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب ترجمة كاملة لدراسة جانيت أبو لغـد المشار اليها • (المرجـــم) •

لويس ويرث Louis Wirth : كان لويس ويرث مرتبطا بمدرسة شيكاغو ، وربما كان أكثر الشخصيات البارزة فى علم الاجتماع الحضرى اثارة للجدل · ولقد أصبحت دراسته الموسومة « الجيتو » The Ghetto واحدة من الدراسات الايكولوجية الكلاسيكية المبكرة · كما أنه قد عانى من موجة التشاؤم التى أصابت بعض السوسيولوجيين من أصحاب مدرسة شيكاغو فيما يتعلق بحياة المدينة · كما أنه قد أفتقر الى المعلومات الواسعة عن المدن فى أجزاء أخرى من العالم · فقد كانت الدراسات السوسيولوجية الحضرية فى افريقيا ، وأمريكا اللاتينية ، وجنوب شرقى آسيا فى وقته لا تزال تحبو فى بداياتها الأولى ·

ولقد تبنى ويرث مدخلا تاريخيا ـ الى حد ما ـ فى دراساته الحضرية· وهو يرى أن بدايات الحضارة كانت ترتبط على نحو بارز بنمو المدن الكبرى · ولقد كان الانتقال من المجتمع الريفى الى المجتمع الذى يسيطر عليه الطابع الحضرى ، وهو ما حدث فى المناطق الصناعية بالولايات المتحدة واليابان ، كان ذلك الانتقال مصحوبا بتغيرات عميقة فى جميع جوانب الحياة الانسانية · ومن ثم ، فان المدينة هى نتاج لعملية نمو وتطور طويل وليست ابداعا لحظيا أو فوريا ، كما أن الممارسات التى تميز طرائق الحياة فى الوقت الحاضر لا يمكنها أن تمحو تماما الممارسات والطرائق السابقة والمسيطرة فى المجتمعات ، « ان حياتنا الاجتماعية تحمل، الى حد ما ، بصمات تراث المجتمع الشعبى القديم التى لا يمكن ازالتها ··· ان المجتمع المحلى والمجتمع الكبير يجب اعتبارهما قطبان مرجعيان تتلاءم مع أحدهما أو الآخر جميع الوحدات العمرانية الانسانية » (٣٩) ·

تعريف ويرث للمدينة : لقد اختار ويرث فى تعريفه للمدينة ، تلك العناصر المميزة للحضرية ، والتى تشكل فى رأيه ، طريقة واضحة مميزة فى الحياة · فالمدينة هى « وحدة عمرانية كبيرة نسبيا ، تتميز بالكثافة السكانية ، وهى مقر دائم لأفراد غير متجانسين اجتماعيا » · وعلى الباحث السوسيولوجى أن يتبين أشكال الفعل الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى التى

(٣٩) Wirth, J., On Cities and Social Life, University of Chicago Press, 1964.

تظهر عادة فى مثل هذه الوحدات العمرانية • ويحتوى تعريف ويرث المدينة بوضوح على المتغيرات التالية : كبر عدد السكان ، وازدياد الكثافة السكانية ، وازدياد درجة عدم تجانس المجتمع المحلى ، وبروز السمات والخصائص المميزة للحضرية Urbanism

تاثير المدينة على الانسان : كلما ازدادت المدينة نموا فى الحجم ، بازدياد عدد المقيمين بها ، فان الروابط بين هؤلاء المقيمين تزداد ضعفا ، كما أن طبيعة العلاقات الاجتماعية تتعرض للتغير والتبدل • فتصبح هذه العلاقات لا شخصية ، وسطحية ومؤقتة سريعة الزوال « كما أن ساكن المدينة يكيف علاقاته بطريقة رشيدة ومعقدة » • ويتصل المواطن الحضرى بالناس اتصالا وثيقا ولكنه اتصال عابر وسطحى ، كما أن الحياة فى المدينة تمارس بايقاع سريع • انها تشبه حياة سكان أثينا كما يقول القديس بولس « انهم لا يمضون وقتهم الا فى الاستماع الى أشياء جديدة أو رواية اشياء جديدة » • ويعنى كبر حجم المدينة أن الاتصال غير المباشر يصبح أمرا ضروريا • فلا يستطيع الناس جميعا أن يلتقوا معا ، كما أنه تحدث تغيرات اقتصادية كالنمو المرتفع فى تقسيم العمل ، وسيطرة الشركات الكبرى على المؤسسات الصغرى ، والتنافس على المورد النادر ، وهو الأرض • ويؤكد ويرث على تنوع الجماعات الموجودة بالمدينة ، والصراع بين مختلف الانتماءات ، والحراك الجغرافى والاجتماعى المتزايد لسكان المدينة •

نقد ويرث : لقد ادرك ويرث نفسة أن هناك حدودا معينة واضحة لعملة ، فلم يذهب الى أن الحضرية كطريقة فى الحياة حكرا على سكان المدينة ، وقد قبل وجهة النظر القائلة بأن المقيمين فى المراكز الحضرية الصغرى قد يتوفرون على كثير من الانماط الحضرية • كما تحقق أيضا من أن هناك بعض المدن الكبرى التى نشأت دون حدوث قدر كبير من التنمية الرأسمالية أو الصناعية ، كما انه لم يحاول أن يجرى تصنيفا للمدن •

المتغيرات الرئيسية : على الناقد أن يثبت أن بعض الخصائص الهامة للتحضر لا يمكن شرحها فى ضوء السمات الرئيسية الثلاثة التى تمثل الحد الأدنى • فلقد بينت الدراسات التى أجريت على بعض القرى الهندية أن هذه القرى تتسم بالكثافة السكانية

الشديدة وعدم التجانس بدرجة تكاد تفوق مدينة كلكتا • غير أن ذلك لم يؤد الى حدوث تحولات ثقافية (٤٠) وعلاوة على هذا فليس هناك مبـــرر لافتراض أن المدن فى كل مكان قد لعبت أو ســـوف تلعب الدور الدينامى الذى قرنها به ويرث فى الغرب •

ولقد حاول ويرث بوضوح أن يقارن المجتمع الحضرى ببعض اشكال الحياة الاجتماعية الأخرى « وهو المجتمع الشعبى » • فهو يفتـــرض أن العلاقات الاجتماعية الريفية تميل الى أن تكون ذات طبيعة اولية ، عـــلى حين أن العلاقات الاجتماعية الحضرية تميل الى أن تكون ذات طبيعة ثانوية •• ولكن الأشكال المتنوعة للعلاقات الاجتماعية فى المدن تتناقض مع هذه الوجهة من النظر • فهناك علاقات اجتماعية أولية ، بل وأحيانا « قرى » داخل المدينة (٤١) • ويبدو أنه من المحتمل أيضا أن يكون خطأ ويرث قـد حدث نتيجة لأنه قد عقد مقارنة بين جزء واحد فقط من المدينة (وهو الجزء الداخلى ـ وخصوصا النطاق المتحول) وبين مناطق ريفية ، وأنه لـــم يضع فى اعتباره الأجزاء الأخرى من المدينة بما فيه الكفاية ، كما أنه لـــم يضع فى اعتباره كذلك المراحل التى يمكن أن تمر بها حياة سكان المدينة •

ولقد استمد ويرث بعض اتجاهاته حول المدينة من زيمل (٤٢) • ويقول زيمل : « ان أعمق مشكلات الحياة الحديثة مشتقة من رغبة الفرد فى الاحتفاظ باستقلاله وفردية وجوده فى مواجهة القوى الجارفة » • ويصف زيمل الحياة فى المدن المتروبوليتانية التى تبدو فى أعين سكان المدن الصغرى باردة

---

(٤٠) Turner, R. (ed.), India's Urban Future, University of California Press, 1962.

(٤١) انظر أيضا Young M. and Willmatt, P., Family and Kinship in East London, Routledge and Kegan Paul, 1957.

* Gans, H., The Urban Villagers, New York and London, 1962.

* وانظر كذلك دراسة جانيت أبو لغد التى ننشر لها ترجمة فى الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب •

(٤٢) Spykman, N.J., The Social Theory of George Simmel., Atherton, new York 1966.

وخالية من الدفء والعاطفة القلبية ، ولكن ذلك ليس فى الحقيقة ، سوى نوع من الميكانزم الدفاعى • ويرسم ويرث صورة عن سطحية الانتماء rootlessness فى المدينة ، والتفكك الشخصى ، والانهيار النفسى ، والجناح ، والجريمة ، والفساد ، واضطراب النظام ـ كظواهر أكثر انتشارا فى المجتمع الحضرى عنها فى المجتمع الريفى • وعلى كل حال ، فان جانوتيز Janowitz فى دراسة خاصة قد اعتبر أن نسبة دالة من سكان المدن المتروبوليتانية ليسوا أفرادا عديمى الجذور أو عديمى الانتماء ، وأن الاتجاهات المضادة للتنظيم الاجتماعى الواسع النطاق تنمو باستمرار لتعمل على تعديل الآثار الناجمة عن انتشار الطابع اللاشخصى الذى تفرضه الحياة التكنولوجية • وهو يرى أن السوسيولوجيين الأوائل ، بما فى ذلك ويرث طبعا ، كانوا هامشيين ، حيث كانوا يبالغون فى موضوع « عدم الانتماء » فى الوجود الحضرى ، كما أنه قد لفت الانتباه الى أهمية المجتمع المحلى (٤٣) •

ويذهب شيلسكى Shelsky فى مقال له بعنوان « هل ساكن المدينة يستشعر الوحدة فعلا ؟ الى أن ساكن المدينة يفضلها على المركز الحضرى الصغير أو القرية (٤٤) • غير أن ذلك لا ينسحب على الوافد الحديث الى المدينة ، اذ يشعر مثل هذا الشخص بالوحدة خلال الفترة الانتقالية لاقامته فى المدينة • كما أن ساكن المدينة يرفض أن يفرض عليه فى وقت فراغه اقامة علاقات مع جيرانه رغما عنه ، ويفضل أن يختار من يصادقهم من بين جيرانه • ان شيلسكى ، على غرار ويرث ، ينطلق فى تفكيره أساسا من المدن الغربية ٠

***

(٤٣) Janowitz, M., The Community Press in an Urban setting, University of Chicago Press, 1952.

(٤٤) Schelsky, H., Aufder suche nach wirklichkeit, Eugen Dietrich Verlag, Dusseldorf, 1965.